٤

جرائم الدولة

مقتطفات من مقابلة مع ديفيد بارسيميان فى ٢١ سبتمبر ٢٠٠١

سؤال: كما تعلم، هناك حنق وغضب وحيرة فى الولايات المتحدة منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر، ولقد وقعت جرائم قتل وهجمات على المساجد، بل حتى على معبد سيخى. إن مدينة بولدر تتمتع بسمعة ليبرالية، وتوجد لافتة فى جامعة كولورادو التى تقع فى تلك المدينة تقول: "عودوا إلى بلادكم، أيها العرب" "اقصفوا أفغانستان بالقنابل" "عودوا إلى بلادكم، يا زنوج الرمال" فما منظورك لما نشأ منذ الهجوم الإرهابى؟

تشومسكى: إنه شعور مختلط. ما تصفه يوجد بالتأكيد. ومن ناحية أخرى، هناك اتجاهات مضادة، فى الأماكن التى لى بها اتصال مباشر، أعلم أن هذه الاتجاهات موجودة، وأسمع الشىء نفسه من آخرين. هذا نوع آخر من التيارات، يؤيد الناس الذين يستهدفون هنا؛ لأن بشرتهم سمراء أو أن لهم أسماء عجيبة. فهناك تيارات متضادة، والسؤال هو: ما الذى نستطيع أن نفعله؛ كى نجعل الاتجاهات الصحيحة تسود؟

سؤال: هل تعتقد أن الدخول فى تحالفات مع أفراد يسمون "شخصيات غير مستساغة" من قبيل تجار المخدارات، والقتلة؛ لتحقيق ما يقال إنه غاية نبيلة، أمر معضل؟

تشومسكى: عليك أن تتذكر أن بعض الشخصيات الأقل استساغة توجد فى حكومات المنطقة، كما توجد فى حكومتنا، وحكومات حلفائنا. فإذا كنا جادين،

فعلينا أن نسأل أيضًا، ما هى الغاية النبيلة؟ هل كان من قبيل الغاية النبيلة أن نزج بالروس فى "فخ أفغانى" فى عام ١٩٧٩، كما يزعم زيجينو بريزنيسكى أنه فعل؟ ذلك أن مساندة المقاومة ضد الغزو الروسى فى ديسمبر ١٩٧٩ شىء، ولكن الحث على الغزو، كما يزعم بريزنيسكى بزهو، وكذلك تنظيم جيش إسلامى من المتعصبين الإسلاميين من أجل تحقيق أغراضك، شىء مختلف. وثمة سؤال آخر يجب أن نطرحه الآن: ماذا عن التحالف الذى يتم تكوينه، والذى تحاول الولايات المتحدة أن تجمعه؟ علينا ألا ننسى أن الولايات المتحدة نفسها فى أوائل الدول الإرهابية. وماذا عن التحالف بين الولايات المتحدة وروسيا، والصين وإندونيسيا ومصر والجزائر، وكلها سوف تُسَر؛ إذ ترى نظامًا دوليّا ينشأ وترعاه الولايات المتحدة، يسمح لها بتنفيذ فظائعها الإرهابية. فروسيا، على سبيل المثال، سوف يسعدها جدا أن تحصل على مساندة الولايات المتحدة فى حربها الإجرامية فى الشيشان. فلديك الأفغان أنفسهم يقاتلون ضد روسيا، ومن المحتمل، أيضا، أن ينفذوا أعمالاً إرهابية فى روسيا. كما يمكن أن تفعل الهند فى كشمير. وربما يسر إندونيسيا أن تحصل على الدعم فى مذابحها فى آتشى. والجزائر، كما أعلنت توا فى الإذاعة التى سمعناها، سوف يبهجها أن تحصل على تفويض بأن تتوسع فى إرهاب الدولة الخاص بها. والشىء نفسه ينطبق على الصين التى تقاتل ضد القوات الانفصالية فى أقاليمها الغربية، وفيها "أفغان" نظمتهم الصين وإيران للقتال فى الحرب ضد الروس، ابتداء ربما من ١٩٧٨، كما تشير بعض التقارير. ويسرى هذا عبر العالم. لن يسمح لأى أحد بأن يدخل هذا الائتلاف بسهولة، مع ذلك فعلينا فى نهاية الأمر، أن نحتفظ بمعايير. "لقد حذرت إدارة بوش فى ستة أكتوبر من أن حزب ساندينيستا اليسارى فى نيكاراجوا، الذى يأمل فى العودة للسلطة بانتخابات فى الشهر القادم، قد احتفظ بروابط "مع دول وتنظيمات إرهابية؛ لذا "لا يمكن الاعتماد عليه فى مساندة الائتلاف الدولى ضد الإرهاب الذى تحاول الإدارة أن تشكله [چورچ جدّار إيه. پى/ ٦ أكتوبر] كما سبق أن ذكرنا، لا توجد منطقة وسطى بين أولئك الذين يعارضون الإرهاب وأولئك الذين يساندونه" كما أعلنت متحدثة وزارة الخارجية الأمريكية، إليزاكوش. ورغم أن الساندينيستا زعموا أنهم قد "تخلوا عن السياسات الاشتراكية

والخطاب المعادى لأمريكا الذى كان يطلق فى الماضى، إلا أن بيان كوش فى ٦ أكتوبر، أشار إلى أن الإدارة لديها شكوك فى مزاعم الاعتدال. ومن الممكن فهم شكوك واشنطون. فنيكاراجوا، فى نهاية الأمر، دأبت على مهاجمة الولايات المتحدة بشكل مهين، جعل رونالد ريجان يضطر إلى الإعلان عن "طوارئ قومية" فى١ مايو، ١٩٨٥، تتجدد سنويّا؛ لأن "سياسات حكومة نيكاراجوا وأفعالها تشكل تهديدا غير عادى وشاذ للولايات المتحدة وأمنها القومى وسياساتها الخارجية" كما أعلن حظرًا ضد نيكاراجوا "ردا على الموقف الطارئ الذى خلقته الأنشطة العدوانية لحكومة نيكاراجوا فى أمريكا الوسطى." أى مقاومتها لهجوم الولايات المتحدة!ورفضت المحكمة الدولية مزاعم الولايات المتحدة بممارسة أنشطة أخرى بوصفها مزاعم لا أساس لها. قبل ذلك بعام، كان ريجان قد حدد ١ مايو بأنه "يوم القانون" احتفالاً بـ"الشراكة التى يبلغ عمرها ٢٠٠ عام بين القانون والحرية" عندنا، مضيفًا أنه بدون القانون لن يسود سوى "الفوضى والاضطراب" وفى اليوم السابق، احتفل بيوم القانون بأن أعلن أن الولايات المتحدة سوف تغض النظر عن إجراءات المحكمة الدولية التى ذهبت إلى إدانة إدارته بسبب "استخدامها غير المشروع للقوة" وانتهاكها للمعاهدات فى هجومها ضد نيكاراجوا، الذى تصاعد فورا، ردا على أمر المحكمة بإنهاء جريمة الإرهاب الدولى. وخارج الولايات المتحدة، يعد الأول من مايو، بالطبع، يومًا للتضامن مع نضال العمال الأمريكيين! ومن المفهوم، إذن، أن تسعى الولايات المتحدة للحصول على ضمانات أكيدة على حسن السلوك بالسماح لنيكاراجوا تحت قيادة الساندينيستا بالانضمام إلى تحالف العادلين الذى تقوده واشنطون، والذى يرحب الآن بالآخرين؛ كى ينضموا إلى الحرب التى تشنها ضد الإرهاب منذ ٢٠ سنة مثل روسيا والصين وإندونيسيا وتركيا وغيرها من الدول الصالحة، وليس أى أحد بالطبع. أو فلنأخذ "تحالف الشمال" الذى تسانده الولايات المتحدة وروسيا معًا، الآن. وهذا تجمع من أمراء الحرب قاموا بإنزال الدمار والإرهاب إلى درجة جعلت معظم السكان يرحبون بالطالبان! وفوق ذلك، فهم تقريبًا متورطون فى تمرير المخدرات إلى طاچيكستان. فهم يتحكمون فى معظم هذه الحدود، ويقال إن

طاچيكستان، محطة رئيسية، ربما المحطة الرئيسية لتدفق المخدرات فى نهاية المطاف إلى أوروبا والولايات المتحدة. فإذا تقدمت الولايات المتحدة للانضمام إلى روسيا فى تسليح هذه القوات تسليحًا ثقيلاً وشن بعض الهجمات انطلاقًا منها، فمن المحتمل أن يزداد انتقال المخدرات، فى ظل الظروف التى تلى ذلك من فوضى ومن فرار للاجئين. "فالشخصيات غير السائغة" فى نهاية الأمر، مألوفة، بناء على سجل تاريخى حافل، وكذلك الأمر بالنسبة "للغايات النبيلة"!

سؤال: ربما يحس الكثير من الأمريكيين بالذهول من تعليقك بأن الولايات المتحدة "من أوائل الدول الإرهابية." فهل لك أن تتوسع فى شرح هذه النقطة؟

تشومسكى: إن أوضح الأمثلة على ذلك، وإن لم يكن أشد الحالات، بأى حال، هو نيكاراجوا. فهى أوضح الحالات؛ لأنها ليست موضع خلاف، على الأقل بالنسبة لمن لديهم أقل اهتمام بالقانون الدولى. وجدير بنا أن نتذكر أن الولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى أدانتها المحكمة الدولية لممارسة الإرهاب الدولى، وهى التى رفضت قرارًا صادرًا عن مجلس الأمن يطالب الدول بمراعاة القانون الدولى. علينا أن نتذكر ذلك خاصة أنه تم كتمه باستمرار. وتستمر الولايات المتحدة فى ممارسة الإرهاب الدولى. وهناك أيضًا أمثلة تعد تافهة إذا ما قورنت بغيرها. فالجميع هنا أحسوا بالغضب الشديد - عن حق - بسبب حدث مدينة أوكلاهوما. وكانت عناوين الصحف على مدى يومين تقول: مدينة أوكلاهوما تشبه بيروت! ولم أر أحدًا يشير إلى أن بيروت أيضًا تشبه أوكلاهوما! وأن جزءًا من السبب هو أن إدارة ريجان أطلقت العنان لقصف إرهابى هناك عام ١٩٨٥، كان شديد الشبه بانفجار أوكلاهوما؛ إذ حدث هناك تفجير شاحنة خارج أحد المساجد، وكانت موقوتة بحيث تقتل أكبر عدد من الناس أثناء مغادرتهم للمسجد، وقتلت ثمانين شخصًا، وجرحت ٢٥٠ معظمهم من النساء والأطفال، طبقًا لتقرير نشر فى الواشنطون پوست بعد ذلك بثلاثة أعوام. كان التفجير الإرهابى موجهًا ضد رجل دين مسلم لم يرق لهم، ولم يطالوه. ولم يكن هذا سرًّا من الأسرار. ولست أدرى ما الاسم الذى تطلقه على السياسات التى تعد عاملاً

رئيسيّا فى وفاة ما يقرب من مليون من المدنيين فى العراق، وما يقرب من نصف مليون طفل، وهو الثمن الذى يقول وزير الخارجية إننا على استعداد لدفعه. هل هناك اسم لذلك؟ وتأييد الفظائع الإسرائيلية مثال آخر. كما أن تأييد سحق تركيا لسكانها من الأكراد، وهو الذى منحته إدارة كلينتون الدعم الحاسم؛ إذ قدمت إدارة كلينتون ثمانين فى المائة من الأسلحة مع تصاعد الأعمال البشعة. وكان ذلك، بحق، عملاً مريعًا. فهو واحد من أسوأ حملات التطهير العرقى والدمار فى التسعينيات من القرن العشرين. غير أنه لا يكاد يعرف بسبب مسئولية الولايات المتحدة عنه. وحين يأتى شخص غير مهذب فيثيره، فإن الموضوع يتم غض النظر عنه بوصفه "غلطة" صغرى. على درب إخلاصنا العام من أجل القضاء على "انعدام الإنسانية" فى كل مكان. أو فلنأخذ تدمير مصنع الشفاء للصناعات الدوائية فى السودان، وهو مجرد هامش صغير فى سجل إرهاب الدولة، سرعان ما تم نسيانه. ماذا عساه أن يكون رد الفعل إذا ما فجرت شبكة ابن لادن نصف المؤن الدوائية فى الولايات المتحدة؟ وكذلك المرافق اللازمة لتعويضها؟ رغم أن المقارنة غير عادلة، إلا أننا فى مقدورنا أن نتصور ذلك؛ إذ أن التبعات أشد ضراوة فى السودان، إذا ما نحينا هذا الاعتبار جانبًا، فلو أن الولايات المتحدة أوإسرائيل أو إنجلترا استهدفت بمثل هذا العمل البشع، فماذا يمكن أن يكون رد الفعل فى هذه الحالة؟ هل نقول خطأ صغير، فلننتقل للموضوع التالى، وليتعفن الضحايا! إن غيرنا فى العالم لا يكون رد فعلهم كذلك. وعلى الرغم من أن حالة السودان، مجرد هامش فى السجل، إلا أنها مع ذلك، تعلمنا الكثير. ومن بين تلك الأشياء التى نتعلمها رد الفعل الذى يحدث حين يجترئ أى شخص على ذكر تلك الحالة. لقد ذكرتها فى الماضى، وفعلت ذلك مرة أخرى ردًا على تساؤلات الصحفيين بعد الأعمال التى وقعت فى ١١/ ٩ بوقت قصير. قلت: إن عدد الوفيات نتيجة "الجريمة الشنيعة" فى ١١/ ٩، التى ارتكبت "بقسوة مرعبة شريرة" اقتباسًا من روبرت فيسك، يمكن مقارنته بعواقب قصف كلينتون لمصنع الشفاء فى أغسطس ١٩٨٨. فجر هذا الاستنتاج المعقول رد فعل غير عادى، بحيث ملأ الكثير من مواقع شبكة المعلومات والصحف بالاستنكار المحموم الذى لا يصدق. وسوف

أتجاهل هذا كله. ذلك أن الجانب الوحيد المهم هو أن الجملة الوحيدة التى تبدو تعبيرًا مخففًا عند التدقيق فيها، قد اعتبرها بعض المعلقين كلامًا فاضحًا. من الصعب تجنب الوصول إلى استنتاج بأنهم قد ينكرون ذلك بينهم وبين أنفسهم، ذلك أنهم يعدون جرائمنا ضد الضعفاء شيئًا عاديّا كالهواء الذى نتنفسه. فالجرائم التى نسأل عنها كدافعى ضرائب، هى التقصير فى دفع التعويضات ومنح الملجأ والحصانة للمذنبين، والسماح للحقائق الفظيعة بأن تغوص عميقًا فى مقبرة الذاكرة. كل هذا عظيم الأهمية كما كان الحال فى الماضى. أما عن نتائج تدمير مصنع الشفاء، فليس لدينا سوى تقديرات. لقد سعت السودان كى تجرى الأمم المتحدة تحقيقًا فى مبررات القصف، لكن حتى هذا عرقلته واشنطون، ويبدو أن القليلين حاولوا التحقيق فى ما وراء ذلك، لكن من المؤكد أننا يجب أن نفعل هذا. وقد يكون من الواجب أن نعيد للذاكرة بعض البديهيات النسبية، على الأقل بين من لديهم أقل اكتراث بحقوق الإنسان، حين نقدر الخسائر البشرية الناتجة عن جريمة، لا نعد فقط من ماتوا، فى الحال، بالمعنى الحرفى للكلمة، وإنما من ماتوا نتيجة لهذه الجريمة. هذا هو النهج الذى نتبعه تلقائيّا، وبشكل ملائم، حين نتدبر الجرائم التى يرتكبها الأعداء الرسميون - مثل ستالين وهتلر وماو، إذا ما ذكرنا أكثر الحالات تطرفًا. هنا نحن لا ننظر إلى الجريمة وقد خفف من وطأتها أنها لم تكن متعمدة، وإنما على أنها نتيجة تفكير هياكل عقائدية مؤسسية. فإذا أخذنا حالة متطرفة، فإن المجاعة التى حدثت فى الصين من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١ لا نغض الطرف عنها على أساس أنها كانت "غلطة" وأن ماو لم "يقصد" أن يقتل عشرات الملايين من البشر. لا . . . ولا تخفف عن طريق التأملات فى الأسباب الشخصية والأوامر التى أدت للمجاعة. وبالمثل، نحن نرفض بازدراء الاتهام بأن التنديد بجرائم هتلر فى أوروبا الشرقية فيه غض للطرف عن جرائم ستالين. وحتى إذا كنا ندعى أننا جادون، فنحن نطبق المعايير نفسها على أنفسنا، دائما. وفى هذه الحالة نعد الذين ماتوا نتيجة للجريمة، وليس الذين قتلوا فى الخرطوم بواسطة قذائف كروز؛ ولا نعتبر أن الجريمة قد خففت من حيث إنها تعكس العمل العادى لصناعة السياسة والمؤسسات الأيديولوچية - كما حدث، حتى إذا كانت تكهناتى الغامضة عن

مشكلات كلينتون الشخصية تتسم ببعض الصحة، حسب اعتقادى، والتى ليست لها صلة، على أى حال، بهذا السؤال. وهذا يرجع للأسباب التى يسلم بها الجميع عند دراسة جرائم الأعداء الرسميين. بعد أن نضع هذه البديهيات نصب أعيننا، فلننظر فى بعض المواد المتاحة لنا بيسر فى الصحافة الجارية. إنى لا آخذ فى الاعتبار ذلك التحليل المستفيض لسلامة ذرائع واشنطون، بوصفها ذات مغزى أخلاقى صغير بالمقارنة لمسألة العواقب.

فبعد الهجوم بعام، "بدون الدواء المنقذ للحياة الذى كانت تنتجه المرافق المدمرة، استمر عدد الموتى فى السودان، نتيجة للقصف، فى الارتفاع، باستمرار، . . . وهكذا فإن عشرات الآلاف من البشر - كثير منهم من الأطفال - عانوا من الملاريا والدرن وغيرهما، وماتوا من الأمراض التى يمكن علاجها . . . فقد كان مصنع الشفاء يقدم أدوية سعرها فى المتناول للبشر، كذلك كان يقدم جميع الدواء البيطرى المتاح فى السودان؛ إذ كان الشفاء ينتج ٩٠ فى المائة من منتجات السودان الدوائية الكبرى . . . كما أن العقوبات المفروضة على السودان تجعل من المستحيل استيراد كميات كافية من الأدوية اللازمة لسد الفجوة الخطيرة التى خلفها تدمير المصنع . . . ما زال الإجراء الذى اتخذته واشنطون فى ٢٠ أغسطس ١٩٩٨ يحرم شعب السودان من الأدوية التى تمس الحاجة إليها. ولا بد أن يتعجب الملايين من الكيفية التى سوف تحتفل محكمة العدل الدولية فى لاهاى بالذكرى السنوية لإنشائها! . (چوناثان بيليك)، [صحيفة البوستون جلوب، ٢٢ أغسطس ١٩٩٩]، ويكتب سفير ألمانيا فى السودان "من الصعب تقييم عدد الأشخاص الذين ماتوا فى هذا البلد الأفريقى الفقير نتيجة للدمار الذى لحق بمصنع الشفاء، لكن القول بأنهم عدة عشرات من الآلاف يبدو تقديراً معقولاً" فيرنر داوم "الكونية والغرب" - [هارفارد إنترناشيونال ريڤيو، صيف ٢٠٠١].

"إن فقد هذا المصنع يعد مأساة للمجتمعات الريفية التى تحتاج إلى هذه الأدوية" توم كارنافين المدير الفنى الذى لديه معرفة وثيقة بالمصنع المدمر، [مقتبس عن طبعة فيلياى هنرى ماكدونالد، شيام باتيا ومارتين برايت - لندن أوبزيرفر، ٢٣ أغسطس، ١٩٩٨ الموضوع الرئيسى، صفحة ١].

كان الشفاء "يقدم خمسين فى المائة من أدوية السودان، وخلف دماره البلاد بدون مدد من الكلوروكوين وهو العلاج المعتمد للملاريا" ولكن بعد ذلك بشهرين، رفضت حكومة العمال البريطانية طلبات "بإعادة التزويد بالكلوروكوين لإسعاف الطوارئ حتى يستطيع السودانيون إعادة بناء إنتاجهم الدوائى" [باتريك وانتر، الأوبزرفر ٢٠ ديسمبر ١٩٩٨] .

كان مصنع الشفاء "هو الوحيد الذى ينتج هذه العقاقير - لما يزيد عن ١٠٠٠٠٠ من المرضى، بسعر حوالى جنيه بريطانى واحد فى الشهر. لا يملك معظمهم اختيار البدائل المستوردة الأكثر تكلفة - كان الشفاء هو المصنع الوحيد الذى يصنع العقاقير البيطرية فى هذه البلاد الشاسعة، التى يغلب عليها النشاط الرعوى، وكان مختصّا فى صناعة العقاقير التى تقتل الطفيليات التى تنتقل من القطعان إلى رعاتها، وهذا أحد الأسباب الرئيسية لوفيات الأطفال فى السودان" .[چيمس أستيل، الجارديان، ٢ أكتوبر ٢٠٠١].

ويستمر عدد الوفيات الصامت فى التصاعد. هذه الروايات التى أوردناها قدمها صحفيون محترمون يكتبون فى صحف كبرى. والاستثناء الوحيد هو أكثر المصادر معرفة، التى ذكرناها توّا، چوناثان بيليك، المدير الإقليمى لبرنامج مؤسسة الشرق الأدنى. فهو يكتب على أساس من الخبرة الميدانية فى السودان. وهذه المؤسسة من مؤسسات التنمية المحترمة، يرجع تاريخها إلى الحرب العالمية الأولى، وهى تقدم المساعدة الفنية للبلدان الفقيرة فى الشرق الأوسط، وأفريقيا، وهى تركز على المشروعات التى تدار محليّا ، وتعمل باتصال وثيق مع الكثير من الجامعات، والمنظمات الخيرية، ووزارة الخارجية الأمريكية، بما فى ذلك ديپلوماسيون معروفون فى الشرق الأوسط، وكذلك شخصيات بارزة فى الشئون التنموية والتعليمية فى الشرق الأوسط، طبقًا لتحليلات موثوق بها ومتاحة أمامنا، بالنسبة لعدد السكان، يعد تدمير الشفاء أشبه بقيام شبكة ابن لادن بهجوم واحد على الولايات المتحدة مما تسبب فى أن "مئات الآلاف من الناس - الكثير منهم من الأطفال - يعانون ويموتون من أمراض يسهل علاجها. " مع أن التشبيه، كما تلاحظ، غير منصف.

فمنطقة السودان "واحدة من أقل مناطق العالم تطوراً، ذلك أن مناخها القاسى وسكانها المتناثرين، وما بها من مخاطر صحية وبنيتها التحتية المتهالكة، تتضافر بحيث تجعل الحياة بالنسبة للكثير من السودانيين صراعًا من أجل البقاء"؛ فهى بلاد موبوءة بالملاريا والدرن وغير ذلك من الأمراض، حيث "لا يعد تفشى الالتهاب السحائى أو الكوليرا من آن لآخر أمراً غير عادى لذلك، فإن وجود الأدوية التى تكون فى متناول الناس ضرورة قصوى". [چوناثان بيليك وكمال الفاقى، تقارير فنية من الميدان لمؤسسة الشرق الأدنى].

وفوق ذلك، فهى بلد ذات أرض زراعية، تعانى من نقص مزمن فى المياه التى يمكن نقلها، ومعدل هائل فى الوفيات، والصناعة القليلة، والديون التى تثقل كاهلها، يهلكها الإيدز وتنهكها حرب داخلية مدمرة لا تنتهى، كما أنها ترزح تحت نير العقوبات القاسية. أما عما يحدث فى الداخل، فهذا أمر متروك إلى حد كبير للتكهنات، بما فى ذلك ما يكتبه بيليك. وهذا معقول تمامًا، وترجح التقديرات أنه فى خلال عام، عشرات الآلاف "قد عانوا بالفعل وماتوا" نتيجة لتدمير المرافق الكبرى التى تنتج عقاقير رخيصة الثمن والأدوية البيطرية. ولا يكشف هذا إلا عن ما يبدو على السطح؛ إذ أن منظمة مراقبة حقوق الإنسان قالت: إنه كنتيجة مباشرة للقصف، "رحلت جميع وكالات الأمم المتحدة الموجودة فى الخرطوم العاملين الأمريكيين، كما فعلت الكثير من منظمات الإغاثة" بحيث "أوقفت الكثير من جهود الإغاثة لأجل غير مسمى، بما فى ذلك منظمة حيوية تديرها لجنة الإغاثة الدولية ومقرها الولايات المتحدة، حيث يموت خمسون من الجنوبيين يوميًا" هذه "أقاليم فى جنوب السودان، حيث تقدر الأمم المتحدة أن ٢,٤ مليون من البشر معرضون للموت جوعًا" وقد يتسبب "انقطاع المساعدة "للسكان المحطمين" فى نشوء "كارثة فظيعة" بل أكثر من ذلك، يبدو أن القصف الذى قامت به الولايات المتحدة حطم الحركة التى تنمو ببطء، والهادفة إلى إيجاد حل وسط بين طرفى الحرب فى السودان" كما أن القصف وضع حدّا للخطوات المبشرة نحو عقد اتفاقية سلام لإنهاء الحرب الأهلية التى خلفت ١,٥ مليون قتيل منذ ١٩٨١، وكان من الممكن أن تؤدى إلى السلام فى أوغندا وحوض النيل بأكمله. " يبدو أن الهجوم قد

"حطم . . . الفوائد المرجوة من انتقال سياسى فى قلب حكومة السودان الإسلامية" فى اتجاه "ارتباط پراجماتى مع العالم الخارجى" فى اتجاه الجهود الرامية إلى التعامل مع أزمات السودان الداخلية، وإنهاء الدعم للإرهاب، والإقلال من نفوذ الإسلاميين المتطرفين [مارك هاباند، الفينانشيال تايمز، ٨ سبتمبر ١٩٩٨].

على حد ما تمخض عنه هذا القصف، يمكننا مقارنة الجريمة التى وقعت فى السودان باغتيال لومومبا، ذلك الاغتيال الذى ساعد على إغراق الكونغو فى عقود من المذابح التى ما تزال جارية؛ أو قلب الحكومةالديموقراطية فى جواتيمالا عام ١٩٥٤؛ الذى أدى إلى أربعين عامًا من الفظائع الوحشية، وغير ذلك الكثير. وبعد ذلك بثلاثة أعوام، يكرر چيمس أستيل فى المقال الذى سبقت الإشارة إليه، ما وصل إليه هاباند من استنتاجات. فهو يستعرض "الثمن السياسى الذى يدفعه بلد يكافح للخروج من الدكتاتورية العسكرية الشمولية والتطرف الاسلامى الهدام والحرب الأهلية طويلة المدى" قبل أن يقع الهجوم الصاروخى الذى "أغرق الخرطوم بين عشية وضحاها فى كابوس التطرف العقيم العاجز الذى كانت تحاول الإفلات منه." ويخلص إلى أن هذا "الثمن السياسى" كان من الممكن أن يكون أشد ضررًا على السودان من تدمير "خدماتها الطبية الهشة" وينقل أستيل عن د. إدريس الطيب، قوله بأن هذه الجريمة "عمل إرهابى تمامًا مثلها مثل ما حدث للبرجين - والفرق الوحيد هو أننا نعرف من الذى ارتكبها. أشدّ ما يحزننى وقوع الضحايا فى نيويورك، وواشنطون، ولكن إذا ما تحدثنا عن الأعداد والتكلفة النسبية، فى بلد فقير، فإن قصف السودان كان أشد سوءًا" د. إدريس واحد من قلة من المختصين فى الصناعات الدوائية فى السودان، ورئيس مجلس إدارة الشفاء. وبكل أسف قد يكون على صواب فى ما يتعلق "بالخسائر البشرية من حيث الأعداد" حتى لو لم نأخذ فى حسباننا "الثمن السياسى" على المدى الأطول. إن تقييم "التكلفة النسبية" مشروع لن أحاول السير فيه، ولاداعى للقول بأن تقييم الجرائم بميزان ما شىء سخيف بصفة عامة، مع أن مقارنة عدد الوفيات أمر معقول تمامًا، كما أنه مقياس فى مجال الدراسات. كذلك فإن الهجوم تسبب فى تكلفة

حادة بالنسبة لشعب الولايات المتحدة، كماصار واضحًا جليّا، يزيغ العيون فى الحادى عشر من سبتمبر، أو ينبغى أن يكون كذلك. ويبدو لى أننا يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا لم يتم إبرازه فى المناقشات المستفيضة عن إخفاقات الاستخبارات التى تكمن وراء ما حدث فى ٩/ ١١ من بشاعة. فقبيل الضرب الصاروخى فى ١٩٩٨، قامت السودان باعتقال شخصين يشتبه فى أنهما ألقيا القنابل على السفارات الأمريكية فى شرق أفريقيا، وأخطرت واشنطون بذلك، كما أكد مسئولون من الولايات المتحدة. غير أن الولايات المتحدة رفضت عرضًا تقدمت به السودان بالتعاون، وبعد الهجوم الصاروخى "أفرجت السودان بغضب" عن المشتبه فيهما. [چيمس ريزين، النيويورك تايمز، ١٠ يوليو ١٩٩٨] ومنذ ذلك الوقت تم تعريفهما بأنهما من العاملين مع ابن لادن. كما أن مذكرات مكتب التحقيقات الفيدرالى التى سربت حديثا، تضيف سببًا آخر يبين لماذا "أفرجت بغضب" عن المشتبه فيهما. تكشف المذكرات عن أن مكتب التحقيقات الفيدرالى كان يريد تسليمهما، لكن وزارة الخارجية رفضت ذلك. ويصف الآن "مصدر كبير من وكالة المخابرات المركزية" رفض هذا العرض بالتعاون من جانب السودان وغيره من العروض يصفه بأنه "أسوأ إخفاق استخباراتى منفرد فى هذا الحادث الشنيع برمته" المتعلق بالحادى عشر من سبتمبر. "فهو مفتاح الأمر كله الآن" بسبب الكم الضخم من الأدلة عن ابن لادن، الذى عرضت السودان تقديمه، وهى عروض كثيرًا ما رفضت بقوة بسبب ما لدى الإدارة من "كراهية غير عقلانية" للسودان، كما يقول المصدر الكبير من وكالة المخابرات المركزية. كان يوجد طى ما رفض من عروض السودان المرفوضة "قاعدة معلومات واسعة عن أسامة بن لادن، وأكثر من ٢٠٠ من كبار أعضاء شبكة القاعدة الإرهابية فى السنوات التى سبقت هجمات الحادى عشر من سبتمبر" قدمت لواشنطون "ملفات ثرية، مشفوعة بصور فوتوغرافية وسير تفصيلية للكثيرين من الكوادر الرئيسية، ومعلومات حيوية عن المصالح المالية للقاعدة فى الكثير من أرجاء المعمورة." لكن رفضت قبول المعلومات بسبب "الكره غير العقلانى" لمن استهدفته الولايات المتحدة بهجومها الصاروخى. "من المعقول القول بأننا لو كانت لدينا هذه المعلومات لتوفرت لنا

فرصة أفضل لمنع الهجمات" التى وقعت فى الحادى عشر من سبتمبر، كما يختم المصدر نفسه الكبير من وكالة المخابرات المركزية كلامه. [داڤيد روز، الأوبزيرڤر، ٣٠ سبتمبر ٢٠٠١]، والمرء لا يكاد يحاول تقدير خسائر قصف السودان، حتى إذا ما استثنينا الضحايا السودانيين الذين ماتوا مباشرة والذين يحتمل أن يكونوا بعشرات الآلاف. ويمكن أن نرجع العدد الكامل للضحايا مباشرة إلى الفعل الإرهابى وحده - على الأقل، إذا توفرت لنا الأمانة التى تجعلنا نخضع لنفس المقاييس التى نطبقها بدقة على الأعداء الرسميين. ويبين لنا رد الفعل فى الغرب أشياء كثيرة عن أنفسنا، فإذا كنا نوافق على اتخاذ بديهية أخلاقية فلننظر فى المرآة، أو أن نعود إلى "إقليمنا الصغير هنا، ذلك الإقليم الذى لم يعبأ به أحد" كما كان هنرى ستيمسون يطلق على نصف الكرة الغربى. كوبا مثلاً، فبعد العديد من سنوات الإرهاب، ابتداء من أواخر ١٩٥٩، منها فظائع شديدة الخطورة، فإن لكوبا الحق فى اللجوء للعنف ضد الولايات المتحدة طبقًا لمبدأ الولايات المتحدة الذى نادرًا ما يناقشه أحد. فللأسف، من السهولة، كل السهولة استمراره، ليس فى ما يتعلق بالولايات المتحدة فحسب، وإنما بالنسبة لغيرها من الدول الإرهابية.

سؤال: فى كتابك "ثقافة الإرهاب" تكتب قائلا: "إن الحمائم الليبراليين يلقون ضوءًا خاصًا على المشهدالثقافى، فهم يرسمون الحدود للانشقاق المحترم". فكيف يؤدون دورهم منذ أحداث الحادى عشر من سبتمبر؟

تشومسكى: ما دمت لا أحب التعميم، فلنأخذ مثالاً ملموسًا. فى السادس عشر من سبتمبر، كتبت النيويورك تايمز أن الولايات المتحدة طلبت أن تقطع الپاكستان المساعدات الغذائية عن أفغانستان. وقد كان هناك تلميح لذلك من قبل، وانما هنا قد قيل تصريحًا. ومن بين مطالب أخرى أصدرتها واشنطون لپاكستان، طلبت أيضا " . . . . منع قوافل الشاحنات التى تقدم الكثير من الغذاء وغيره من المؤن لسكان أفغانستان من المدنيين" إنه الطعام الذى يحتمل أنه يبقى ملايين من الناس أبعد قليلاً عن المجاعة [چون بيرنز، إسلام آباد، النيويورك تايمز]. فماذا يعنى هذا؟ هذا يعنى أن أفغان جياع لا يعرف أحد عددهم سوف يموتون. هل هؤلاء من طالبان؟ كلا، إنهم ضحايا للطالبان. والكثير منهم لاجئون محليون قد

احتجزوا ومنعوا من المغادرة. ولكن يوجد بيان يقول: "وهو كذلك، فلنمض فى قتل أعداد غير معروفة"، ربما الملايين من الأفغان الجياع، ضحايا الطالبان. وماذا كان رد الفعل؟ قضيت اليوم كله تقريبًا، بعد ذلك، أتحدث فى الإذاعات والتلفزيونات فى أنحاء العالم. ظللت أنبه إلى هذا. ولم يستطع أحد فى أوروبا أو الولايات المتحدة أن يفكر فى كلمة واحدة على سبيل رد الفعل. وكان هناك فى أماكن أخرى من العالم، الكثير من رد الفعل، حتى حول أطراف أوروبا مثل اليونان. كيف كان يجب أن يكون رد فعلنا على ذلك؟ لنفترض أن هناك دولة كانت لها من القوة ما يجعلها تقول، فلنفعل شيئًا يجعل عددًا ضخمًا من الأمريكيين يموت جوعًا. هل كنت تعتقد أنها مشكلة جادة؟ ومرة أخرى أقول إن هذا تشبيه غير منصف. ففى حالة أفغانستان، التى تركت كى تهلك بعد أن حطمها الغزو السوفييتى واستغلت لصالح حرب واشنطون، صار جزء من البلاد فى حالة من الدمار وصار الشعب بائسًا، بل هو يشكل بالفعل أسوأ الأزمات الإنسانية فى العالم.

سؤال: الإذاعة الوطنية العامة (ناشيونال پابليك راديو) والتى كانت إدارة ريجان تدينها فى الثمانينيات بوصفها "راديو ماناجوا على نهر پوتوماك"- ماناجوا عاصمة نيكاراجوا- تتبنى هى الأخرى الجانب الليبرالى من هذه المناظرة الجديرة بالاحترام، وكما أن نوح أدامز، الذى يقدم برنامج "كل شيء يمكن أخذه فى الاعتبار" سأل هذه الأسئلة فى ١٧ سبتمبر: هل يجب السماح بالاغتيالات؟ هل يجب السماح ببعض الانحرافات لوكالة المخابرات المركزية؟

تشومسكى: لايجب السماح لوكالة الاستخبارات المركزية بتنفيذ الاغتيالات، ولكن هذا أقل شيء، فهل يجب السماح لوكالة الاستخبارات المركزية بتنظيم تفجير السيارات ببيروت مثل الذى كنت قد ذكرته لك من قبل؟

فهذا الأمر لايعتبر سرًا، وذلك كما تم إيضاحه فى التقارير، ولكنه سرعان ما تم نسيانه، فذلك لم ينتهك أية قوانين. كما أنها ليست الاستخبارات فحسب، ففى حالة السماح لهم بتنظيم جيش إرهابى ذى مهمة رسمية فى نيكاراجوا، وذلك مباشرة من داخل وزارة الخارجية، لمهاجمة أهداف سهلة فى نيكاراجوا، مستهدفة عيادات طبية وجمعيات زراعية غير محمية! فلتذكر أن وزارة الخارجية وافقت

رسميّا على هذه الاعتداءات، وذلك بعد أن أمرت المحكمة الدولية الولايات المتحدة بإنهاء حملة الإرهاب الدولى، وأن تقوم بدفع تعوضات هائلة.

فما مسمى ذلك؟ أو كيف تسمى إقامة شيء يشبه شبكة أسامة بن لادن، ليس هو نفسه، ولكن منظمات أخرى توجد فى الخلفية؟

وهل يجب أن يكون للولايات المتحدة السلطة التى تسمح بإمداد إسرائيل بمروحيات للهجوم تستخدم لتنفيذ اغتيالات سياسية وهجمات على أهداف مدنية؟ فهذه ليست وكالة الاستخبارات المركزية، إنها إدارة كلينتون، بلا أية اعتراضات ذات قيمة. ففى واقع الأمر، لم يتم حتى الإبلاغ عن ذلك، برغم كون المصادر موثوق فيها.

سؤال: هل لك أن تحدد باختصار الاستخدامات السياسية للإرهاب؟ وأين مكانها فى نسق المبادئ؟

تشومسكي: إن الولايات المتحدة ملتزمة رسميّا بما يسمى "الحرب منخفضة الحدة" هذا هو المبدأ الرسمى. وإذا قرأت التعريف القياسى للصراع منخفض الحدة وقارنته بالتعريفات الرسمية "للإرهاب" فى كتيبات الجيش، أو فى قانون الولايات المتحدة ستجد أنها التعريفات نفسها تقريبا. فالإرهاب هو استخدام وسائل الإجبار الموجهة إلى السكان المدنيين لتحقيق أهداف سياسية أو دينية أو غير ذلك. لقد كان هذا هو الهجوم على مركز التجارة العالمى، جريمة إرهابية مفزعة فى بابها. فالإرهاب، طبقًا للتعريفات الرسميه هو ببساطة جزء من فعل الدولة، المذهب الرسمى لها، وليس فقط مذهب الولايات المتحدة، بالطبع. إنه ليس "سلاح الضعفاء" كما يزعمون كثيرًا. والأكثر من ذلك، أن جميع هذه الأشياء يجب أن تكون معروفة معرفة جيدة. ومن المخجل أنها ليست كذلك. وأى شخص يريد أن يعرف تلك الأشياء، يجب أن يبدأ بقراءة مجموعة أليكس چورچ التى ذكرت قبل ذلك، فهى تعرض الكثير من الحالات. هذه أشياء يحتاج الناس إلى معرفتها إذا كانوا يريدون أن يفهموا شيئًا عن أنفسهم. يعرف الجناة بالطبع، عن طريق ما أوقعوه من ضحايا، غير أنهم يفضلون أن ينظروا إلى مكان آخر.

* * *